قراءة في التجربة النقدية الأكاديمية للخطاب النقدي السيميائي المغاربي

مقاربة من منظور نقد النقد

The academic critical experience of the Maghreb semiotic discourse (A metacritical approach)

أ :دوالي بلخير

جامعة المدية

الملخص:

جاءت هذه القراءة الواصفة سعيا قدر الإمكان للإحاطة بإستراتيجية نقد النقد ومراميه ومنهجه، فكان الجهد التحليلي منصبا على مساءلة الخطاب النقدي الأكاديمي الذي وجه للمتن النقدي السيميائي المغاربي سعيا لإبراز خصوصياته وإستراتيجية اشتغاله، وذلك برصد أصوله المعرفية وتتبع خصوصية قراءته وميزاتها إضافة إلى معاينة طبيعته المنهجية وأدواته الإجرائية، ولتحقيق هذا الهدف العلمي تم الاستناد إلى دراسة نقدية أكاديمية عاينت الخطاب السيميائي المغاربي وفق منظور قراءة نقد النقد، وهي الدراسة التي حاولت أن أعاين رؤيتها النقدية لجوهر العلامات السيميائية وطبيعتها في الخطاب النقدي السيميائي المغاربي مستثمرا فكرة إعادة قراءة المسار النقدي الأكاديمي لتجربة الناقدين المغاربيين الجزائري أحمد يوسف، والمغربي سعيد بنكراد .

الكلمات المفاتيح

النقد الأكاديمي . النقد السيميائي . نقد النقد

Abstract :

This analytical reading tries to surround the strategy of metacriticism and its objectives and methods. It focuses on questioning the academic critical discourse which was directed to the Maghreb semiotic criticism. It seeks to highlight its specificity and its operational strategy by searching its scientific assets; following the specificities of its reading; and previewing its methodological nature and procedural tools.

To achieve this scientific purpose, I have based on an academic study which examined the Maghreb semiotic discourse according to the metacriticism

المنارة للاستشارات

vision. I tried to examine the nature of semiotics signs used in the Maghreb semiotic critical discourse, exploiting the re-reading of the academic critical course of two critics, the Algerian: Ahmed Youcef and the Moroccan: Said Bengrad.

Key words: metacriticism, semiotic discourse, semiotic signs

1. الإطار المنهجي:

1.1. طبيعة القراءة الواصفة لنقد النقد:

لقد عرف النقد الأدبي المعاصر مجموعة من التحولات المعرفية التي كان من بينها ظهور خطاب نقدي يجعل من النقد نفسه موضوعا للتفكير والتحليل وهو الخطاب الذي سعت التنظيرات الحديثة للارتقاء به إلى درجة الكيان المعرفي النوعي ضمن السياق النقدي، وهو " ما استدعى قيام نقد النقد كمبحث نقدي للتفكير في قضايا النقد وتأمل إشكالاته " [1] ، فكان نقد النقد هو ذلك الرافد الفكري الذي اكتسب مكانته المعرفية من مقاربة الخطاب النقدي تحت رهان القراءة وإعادة القراءة " وتأطير النصوص النقدية ضمن رؤية التعدد والاختلاف "[2] بما يسمح بتوسع أفق القراءة وتعدد التأويلات وفق اختيارات القارئ وقدرته على التحليل والتفسير ضمن الاستعمال الموضوعي الواعي بالمنهج على حساب استعماله الاستكشافي.

تنطلق الرؤية التحليلية لأي باحث في مجال نقد النقد من تحديد أهدافها ومتنها وتتبع مدى احترام الناقد لمنطلقاته النظرية وابتعادها عن الإسقاطات الذاتية، استنادا إلى طبيعة المنهج الذي يقوم عليه هذا الخطاب النقدي، وهو المنهج " الوصفي التحليلي المرتبط بالبعد الابستيمولوجي الذي يتجاوز حدود إعادة النص النقدي نفسه " [3] مع السعي لتقديم قراءة تمتلك إستراتيجية تفسير تجعله يتحدد ككيان معرفي مخصوص بقراءة محايثة في تعامله مع مسارات الخطاب النقدي وتشكيلاته النظرية والمفهومية والمصطلحية وطبيعة منهجه .

2.1. جوهر القراءة الأكاديمية:

تشير القراءة الأكاديمية إلى البحوث الجامعية المتخصصة التي تعتنق مبدأ " الدقة العلمية والوضوح قدر الإمكان وتثبت منهج قراءتها بخلفيات معرفية محددة ومرجع علمي

المنارة للاستشارات

واضح" [4] بفضل فاعلية أنساق التفسير الموضوعي الخاضع للجوهر المنطقي للإقناع كإستراتيجية تحليل ومعاينة، فهي قراءة تحليلية جوهرها إعمال الفكر لتبين حقيقة القضايا المدروسة مما يفسر استقلالية القارئ الأكاديمي وأثر ثقافته في صنع قراءة موضوعية معللة ، فطبيعة هذه القراءة تعبير عن حسابات منطقية بفضل التعامل الموضوعي مع النص الأدبي أو النقدي استنادا إلى الأسباب والقرائن والعلل والضوابط المنهجية التي تساعد القارئ الأكاديمي على الربط والتحليل للوصول إلى نتائج مبررة مقنعة.

تهدف هذه القراءة إلى الإقناع المعرفي باستنادها إلى الأسلوب التعليلي الذي " يفهم المتلقي قبل أن يثير فضوله فتكون ملتزمة قدر الإمكان بالابتعاد عن الأحكام المسبقة والذاتية" [5] ،كما تساهم في جعل القارئ الذي لم يقرأ النص الأدبي أو النقدي يأخذ عنه وجهة نظر قائمة على منظور منطقي استفادة من الخطوات المنهجية للبحث العلمي في التصدي لقضية أدبية أو نقدية، كما تستحضر هذه القراءة في بعض مساراتها التحليلية الأدوات الإحصائية كمعطيات كمية تعد ضرورة نقدية ملحة لرسم جوهرها الاستدلالي بغية الارتقاء بنفسها إلى مستوى الموضوعية التي تتطلبها معطيات القراءة العلمية المنهجية.

3.1. خطة القراءة :

لقد فرضت علي طبيعة البناء المنهجي للمقالة النقدية الأكاديمية معاينة مبحث واحد من مباحث القراءة الأكاديمية التي قدمها الباحث هامل بن عيسى والموسومة ب " إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)"[6] حيث ركزت قراءتي على المبحث المعنون ب" إشكالية التفكير السيميائي المغاربي" وهو المبحث الذي تتبع جوهر العلامة السيميائية وفلسفة بنائها ، سعيا مني رصد مقومات قراءة هذا الباحث وكشف جوهرها التحليلي في مقاربة خصوصية العلامات السيميائية وإستراتيجية تشكيلها في فكر الناقدين الجزائري أحمد يوسف، والمغربي سعيد بنكراد على سبيل المثال لا الحصر استثمارا لكتابيهما النقديين (الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة) للناقد أحمد يوسف، والسيميائية والتأويل (مدخل إلى سيميائيات شارلز سندرس بيرس) للناقد سعيد بنكراد.

المنارة للاستشارات

2 . إشكالية التفكير السيميائي المغاربي حول العلامة السيميائية:

لقد عرف الخطاب النقدي المغاربي عددا من المنجزات النقدية النظرية والتطبيقية السيميائية القائمة على الاستفادة الفكرية من جوهر العلامة السيميائية واقتفاء مساراتها وإشكالاتها، بفضل اجتهادات نقدية سيميائية مغاربية معاصرة هامة معرفيا، إذ يشير الباحث هامل بن عيسى إلى الارتباط الفكري والمنهجي للدراسات السيميائية المغاربية بالمصدر الغربي استثمارا للخلفية الابستيمولوجية التي أنتجتها الثقافة الغربية بما تتضمنه من تصورات نظرية ومنهجية ومصطلحية تعد مصدرا نقديا مهما للخطاب النقدي السيميائي المغاربي، وهو ما هو ما حاول كشفه عبر مسار قراءته الواصفة لخصوصية هذا الخطاب النقدي عند الناقدين المغاربيين أحمد يوسف وسعيد بنكراد بتتبع الأسس المعرفية والنقدية التي قامت عليها رؤيتهما السيميائية حول بنية العلامات السيميائية وخصوصياتها.

1.2. قراءة في جوهر العلامة السيميائية من المنظور النقدي للناقد أحمد يوسف:

شقت قراءة الباحث بن عيسى هامل طريقها نحو تتبع طبيعة التفكير النقدي للناقد أحمد يوسف حول قضايا العلامات السيميائية مركزا على الصلة المعرفية التي " تجمع العلامات السيميائية بملابساتها الفلسفية " [7] انطلاقا من شعور هذا الناقد بضرورة الوعي الفكري بهذه العلاقة الفكرية تأسيسا لخصوصية الخطاب النقدي السيميائي المغاربي المعاصر، فتبنى مشروعية التساؤل النقدي القائمة على تجاوز ثقافة التبعية النقدية للمنجز الغربي دون نفي الأهمية الفكرية للتأثير المعرفي الخلاق في إثراء التجارب النقدية النظرية والتطبيقية والسعي لتأسيس تصور نقدي سيميائي يواكب التطورات النقدية والإبداعية العربية والأجنبية على حد سواء ، فكانت دعوة الناقد أحمد يوسف سعيا " لبناء منظومة تفكير نقدي سيميائي تتحرك في خصوصية السياق الثقافي العربي عموما والمغاربي بشكل خاص" [8].

تؤكد الإستراتيجية السيميائية التي تبناها الناقد أحمد يوسف على أهمية رسم الخطوط الرئيسية للمقاربة السيميائية وطبيعة لغتها الواصفة ومرجعياتها المعرفية وامتداداتها التاريخية، فسعى لمعاينة المقومات التي تقوم عليها طبيعة العلامات السيميائية

المنارة للاستشارات

مستحضرا الخلفية النقدية الغربية التي تناولت إشكالية المعنى محاولا " مقاربة الأسس التي ترتكز عليها فلسفة العلامة فضلا عن بيان اهتزاز الطروحات الفكرية والنقدية الغربية المعاصرة " [9] .

لقد تبنى الباحث منهجية قراءة وصفية استكشافية تتبع من خلالها بنية كتاب "الدلالات المفتوحة (مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة) "[10] باعتباره أنموذجا نقديا يكشف طبيعة التصورات السيميائية التي شكلت التجربة النقدية للناقد أحمد يوسف ، فحاول من خلال هذه القراءة مناقشة أهم القضايا السيميائية المتضمنة في هذا الكتاب النقدي والتي تعكس صورة من صور خصوصية التفكير السيميائي في الخطاب النقدي المغاربي المعاصر.

لقد حاول الباحث قدر المستطاع الابتعاد عن التلخيص والاختصار لكي لا يسيء لطبيعة القراءة المقدمة في هذا الكتاب النقدي السيميائي، فلاحظ بقراءة سريعة لمنهجية بنائه أنه انبرى لمعاينة الجذور التاريخية للعلامات السيميائية " وكشف صلة السيميائيات بالمجال الفلسفي" [11]، ومعالجة طبيعة الخطاب السيميائي الحديث مركزا من جانب آخر على فاعلية التفكير الرياضي الديكارتي في تشكيل البعد الثنائي التعارضي في الفكر النقدي السيميائي خاصة في تأثيره على" الوحدات الدلالية الصغرى وتشكيل المربع السيميائي"[12]، وهو ما جعل قراءة الباحث وقوعا تحت مقتضيات طبيعة القراءة الأكاديمية تركز على تبني الناقد أحمد يوسف لفكرة بنية النص الداخلية التي انعكست على طبيعة القراءة المحايثة التي تميز التوجه النقدي السيميائي، كما تم التطرق أيضا في هذا الكتاب لطبيعة العلامات السيميائية وأنواعها ووظائفها بالاستناد إلى مبدأ الاستدلال المنطقي العقلاني باستعراض أنواع العلامات وخصوصية بنائها، ومنه الاشتغال على صيغ تحقيق العلامات السيميائية بناء على العلاقة الاعتباطية التي تجمع الدال بالمدلول وتأثير العوامل النفسية والسياق في رسم خصوصياتها، دون تجاوز طبيعة العلامة الجمالية وأبعادها، وضمن ذلك استثمار آلية المقارنة كخيار منهجي تحليلي كشف الاختلاف المعرفي لتشكل العلامات السيميائية بين رؤية دي سوسير الثنائية (الدال والمدلول)، وبين رؤية بيرس الثلاثية(الدال والمدلول والمرجع أو المؤول). [13] .

المنارة للاستشارات

يؤطر الباحث بن عيسى هامل قراءته الأكاديمية التطبيقية بمقدمات نظرية تمهيدية لطبيعة قراءته المنجزة فيشير إلى المرجعية النقدية التي استند إليها الناقد أحمد يوسف في رسم رؤيته السيميائية للعلامات السيميائية، فرأى أنها تقوم على تأثيرات أطروحته الأكاديمية " القراءة النسقية " [14]، وبحوثه السيميائية التي نشرها في عدد من المقالات النقدية في مجلات وطنية ودولية باعتبارها حصيلة لسنوات من الاشتغال على الخطاب السيميائي منذ مطلع تسعينيات القرن الماضي.

ما تمت ملاحظته في أغلب مسارات قراءة الباحث لكتاب الناقد أحمد يوسف أنه قدم أفق قراءته وحاول فرضه على القارئ المفترض عندما تبنى قراءة انفعالية أكثر منها موضوعية، لأنها لم تكن مستندة إلى تحليل منطقي مقنع بحكم أن إستراتيجيتها التحليلية جاءت قائمة على البعد الذاتي الانطباعي أكثر من الموضوعي العقلاني متناقضا مع خصوصية قراءة نقد النقد التي كان من المفروض أن يعاين بوساطتها كتاب الناقد، فيلاحظ أنه ينطلق في بناء ممارسته النقدية دون تفكير في مخاطر الأحكام القيمية التي سيطرت على قراءته في معاينة تجربة الناقد أحمد يوسف السيميائية، حينما رأى أن ما يتضمنه كتابه النقدي المدروس" يعد اجترار وتكرارا للمنجز النقدي الغربي" [15]

لقد تميزت قراءة الباحث في أغلب مساراتها التحليلية لرؤية الناقد أحمد يوسف بالخروج عن خصوصية القراءة الموضوعية المستندة إلى مرجعية منهجية قائمة على دلائل وبراهين تثبت وجهة نظره النقدية، عندما " يتجاوز التحليل إلى التقييم وتتبع العيوب وإصدار الأحكام دون أي حيثيات ومعايير نقدية " [16]، الأمر الذي جعل قراءته تستحضر سلبيات رؤية الناقد أحمد يوسف أكثر من ايجابياتها بالرغم من أنه استثمر جهوده النقدية كأنموذج معبر عن خصوصية الخطاب السيميائي المغاربي، فلم يحتط من اصدرا الأحكام الذاتية التي تتنافى مع صرامة الباحث العلمي في الاستناد إلى الحجة ومنطقية الإجابة ودقة المعلومات، وهو ما جعله يرى أن كتاب الدلالات المفتوحة أكثر من النقول والإحالات النقدية من الخلفيات الغربية وأغفل الإسهامات المعرفية العربية، فعده " نسخة مشوهة لكتابات غربية بحروف عربية يطغى عليه الأسلوب النقلي التقريري لا العقلاني

المنارة للاستشارات

الموضوعي"[17] عندما رأى أنه جاء متماهيا مع التفكير السيميائي الغربي فهو اجتهاد نقدي قائم على سلطة " الذاكرة أكثر من التفكير الواعي والتحليل العقلاني" [18].

لقد انطلق الباحث من موقف انتقادي استهجاني لإستراتيجية البناء المعرفي لكتاب الدلالات المفتوحة مبرزا جوانب قصوره النقدي مركزا على غياب العلاقة التي تجمع السيميائيات بالفلسفة في فكره النقدي من منطلق أنه لا يمكن الحديث عن التنظير السيميائي في غياب الجهاز المفاهيمي المنتج له، فجاء تصوره التحليلي منسجما مع تصور أمبرتو إيكو الذي يشير إلى " التهرب غير العلمي من الاعتراف بالسيميائيات كخطاب فلسفي" [19] ، لكنه لم ينتبه إلى أن الناقد أحمد يوسف يكرر في أكثر من موقف علمي تلك الأهمية المعرفية التي حرص على تحقيقها في قراءته السيمائية عندما نجده يشير صراحة بأنه لا يمكن " تجريد السيميائيات المعاصرة من أصولها الفلسفية " [20].

يلاحظ متأمل طبيعة القراءة التي قدمها الباحث هامل بن عيسى أنه لم يستطع النأي عن متاهات القراءة الانطباعية فقد صور للقارئ المفترض الجهود النقدية التي قدمها الناقد أحمد يوسف في كتابه الدلالات المفتوحة بتراكماتها المعرفية وأصولها الفكرية على أساس أنها مجرد تكديس للأفكار والمفاهيم الغربية دون أي تدخل نقدي خاص، فيشير إلى طغيان الطابع التعليمي الذي ميز رؤيته السيميائية على حساب القراءة المعرفية النظرية والتطبيقية التي كان من المفروض أن تميز مقاربته النقدية، فطغت بذلك الخلفية النقلية على العقلية، فكان تعامله مع " الأفكار النقدية على أساس أنها صورة طبق الأصل للمصدر السيميائي الغربي توافقا مع ما تقدمه الكتب التعليمية الخالصة "[21]، لكن الباحث لم يشر إلى الأهمية الفكرية التي قدمتها التصورات النقدية السيميائية الغربية في رسم خصوصية تجربة الناقد أحمد يوسف من منطلق معرفي يركز على ضرورة " استيعاب النماذج في أصولها ومساءلة أبعادها الابستيمولوجية " [22]

لقد جاءت قراءة الباحث في أغلب مساراتها التحليلية بمثابة الاستجابة النفسية للمنبهات النصية دون إظهار قوة الفكر في عملية التحليل، فيقحمها لينتقد من خلالها الناقد أحمد يوسف بشكل انطباعي أكثر منه موضوعي دون أي مبرر نقدي أو فكري معقول، فبدلا من أن يقدم الباحث دلائل نقدية تثبت وجهة نظره التحليلية نجده يتبني

المنارة للاستشارات

رؤية فكرية انتقادية جعلته يرى كتابات الناقد مشابهة للكتب المدرسية في كونها " لا تتجاوز حدود العرض والتلخيص والنقل الأمين"[23]

إن تركيز القراءة النقدية على مستوى الاشتغال النصي الذي قدمه الباحث حيث تقدم أدوات التحليل والتفسير، كشف وقوع مسار قراءته في أسر النقد الانطباعي الذي لا يستند إلى معايير علمية واضحة وإنما يخضع للذوق الشخصي، عندما رأى أن الناقد أحمد يوسف استند إلى الجهد النقدي للآخرين أكثر من تقديم وعيه السيميائي الخاص، فجاء " خطابه النقدي خطابا للذاكرة والمرجعية لا خطابا للعقل والإبداع " [24]، ووظيفة المطالعة أكثر من التعليل العقلاني، وهو ما يفسر " التكرار المعرفي في كتابه في غياب واضح للمعارف والمفاهيم النظرية التي تطال الخطاب السيميائي المغاربي المعاصر" [25] .

لقد اتخذ الباحث التحليل النفسي والمقارنة خلفية منهجية لقراءة تجربة الناقد أحمد يوسف السيميائية عندما شبه خطاب الناقد السيميائي من حيث السطحية للخطابات السياسية العربية التي تعبر عن الوحدة العربية وتحرير فلسطين وغيرها من القضايا التي لم تتحقق ولا ملامح قريبة لتحققها، لكن الباحث لم يقدم دليلا واحدا يثبت من خلاله هذه المقارنة وهو المسار التحليلي الذي يكشف شيوع المنهج الانطباعي الذي يتناقض مع مقتضيات القراءة النقدية الأكاديمية المقدمة .

يشير الباحث إلى التناقض النقدي والمنهجي في الفكر النقدي لأحمد يوسف بسبب عدم تحديد المفاهيم والمقولات النقدية التي تتداخل وتتشابك في ما بينها فأسس خطابا متناقضا قدم فيه إشكالات معرفية بدون حلول واضحة خاصة عندما اهتم بالأفكار النظرية المجردة أكثر من مقاربته للممارسات التطبيقية المنجزة كما يشير إلى عدم " الاهتمام بالإطار الفلسفي الذي يجب أن تقدم فيه المفاهيم والمصطلحات والآراء السيميائية " [26]، وهو التصور الذي لا يقوم على أسس علمية متينة لأن الباحث لو تأمل بعناية مقومات الرؤية الفلسفية في فكر الناقد أحمد يوسف لوجده يشير إلى تأثير الإطار الفلسفي في رسم إستراتيجية النقد السيميائي فمفهوم العلامة السيميائية مثلا " يضرب بجذوره في تاريخ التفكير الفلسفي الإنساني" [27] ،كما يتناقض الباحث مع تصوراته

التحليلية السابقة مباشرة عندما يشير إلى توظيف هذا الناقد لمفاهيم سيميائية وتقديمها للقارئ بطريقة تمكنه من العودة إليها بسهولة بسبب سلامة الربط المعرفي بينها.

لكنه يركز على تقيده ببعض المفاهيم وفق ما قدمت في مضانها الغربية الأصلية بطريقة تعليمية وكأنها قوالب جاهزة عندما رأى أن الإستراتيجية النقدية التي تبناها الناقد أحمد يوسف كانت باستحضار الخلفية السيميائية الغربية من حيث المفاهيم والمصطلحات وعرضها بشيء من الإسهاب سعيا للانفتاح على أدوات التفكير المنهجي لسد الثغرات المعرفية والنقدية العربية دون السعي لتأسيس خطاب نقدي سيميائي عربي خالص، وهو ما يكشف غياب الجذور الفلسفية التراثية العربية حول العلامة السيميائية وقضاياها في المنجز النقدي لأحمد يوسف .

لقد خرجت قراءة الباحث من قبضة النقد التحليلي المنهجي لتتعقب الهنات النحوية بدلا من تتبع طبيعة الرؤية النقدية وخصوصيتها فيشير إلى " طول الجمل وبترها وغياب أدوات الربط والأخطاء النحوية والربط بين المعاني المتناقضة دون أي مسوغ معرفي أو منهجي" [28]، لكن قراءة الباحث لم تقدم مثالا واحدا كمؤشر نصي من الكتاب النقدي يشير إلى هذه التصورات التحليلية مما جعل قراءته لا تستند إلى أسس علمية مقنعة، كما رأى من جانب آخر أن بناء الكتاب النقدي جاء بصيغة تاريخية فتعامل مع " المفاهيم والمقولات السيميائية بتحديد موضعها التاريخي بدلا من جوهر حقائقها المعرفية والفلسفية "[29]، ومن حين لآخر نجده أيضا يمارس ضغطا على التصورات الفكرية للناقد أحمد يوسف ليجعله يتحرك ليستجيب لأفق قراءته وخلفيته المرجعية الخاصة متجاوزا خصوصية قراءة نقد النقد وطبيعتها الوصفية التحليلية المستثمرة للبعد الابستيمولوجي عندما يطلب من الناقد بضرورة أن يكون " إما من فلاسفة المشكلة أو من فلاسفة الجواب"[30]

2.2. قراءة في مفهوم العلامة السيميائية عند الناقد سعيد بنكراد:

عالج الباحث في مسار مواز المنظور النقدي السيميائي للناقد سعيد بنكراد إذ يشير منذ بداية قراءته الواصفة لخطابه النقدي تبعيته المعرفية إلى التفكير السيميائي الغربي على حساب محاولة تأصيل خطاب نقدي عربي، فأغلب دراساته شكلت توجها نقديا نحو

المنارة للاستشارات

تبني تصورات " بيرس (تشارلز سيندرس) السيميائية " باعتباره المؤسس الفعلي للسيميائيات المعاصرة " [31]، وهي المرجعية المعرفية التي ساهمت في تجلى وعي بنكراد النقدي عندما نجده يصوغ تصوره النقدي السيميائي وبشكل خاص رؤيته إلى بنية العلامة التي كانت من أهم القضايا التي عاينها الناقد عبر مسارات تشكل خطابه النقدي.

لقد حاول الباحث كشف طبيعة الرؤية النقدية السيميائية لسعيد بنكراد مستندا إلى خصوصية قراءة نقد النقد، مركزا على كتابه السيميائية والتأويل" مدخل إلى سيميائيات تشارلز سندرس بيرس " [32] ، فقام من منظور مقاربته التحليلية بتقديم قراءة وصفية استكشافية لهيكل بناء هذا الكتاب النقدي مستثمرا تغطية قرائية سريعة لاحظ من خلالها أن طبيعة أسئلة هذا الكتاب النقدية وقضاياه النظرية وظواهره المنهجية ساهمت في تقسيمه إلى خمسة فصول لامس فيها حضور مفاهيم العلامة السيميائية في المتن النقدي السيميائي، وفي خضم ذلك كشف نظرية المقولات باعتبارها الأساس المعرفي الذي قدم من خلاله بيرس رؤيته السيميائية، فمناقشة بناء العلامة في التصور السيميائي البيرسي وتحديد مكوناتها وكشف جوهرها الثلاثي ، ومنه الدخول في نطاق التأويل كما تظهر في بعض قضايا المؤول دون تجاوز محفل المتلقي في تصورات بيرس السيميائية.

رأى الباحث أن أول ما يصدم القارئ هو اضطراب الناقد المنهجي في بناء فصول الكتاب النقدي فيمكن تجاوز الفصل الأول إلى الثاني دون الشعور بغياب رؤية معرفية أو منهجية، بينما طبيعة رؤيته النقدية فجاءت "بطابع نقلي تقريري خاصة في تقديمه للأصول النظرية " [33]، وهو ما يشير إلى التأثير المنهجي الانطباعي الذي شاع في قراءة الباحث، لكن ما يشد الانتباه أن الباحث بدلا من قراءة الكتاب الذي أشار أنه سيدرسه ويحلله نقديا فإننا نجده لا يستحضر إلا أنموذجا نصيا واحدا فقط، بينما يوظف كل الأمثلة النصية الأخرى من مقولات نقدية خارجة عن هذا الكتاب أصلا، فينتقل دون مبرر علمي أو نقدي إلى آرائه النقدية النظرية في عدد من المقالات المنشورة بشكل خاص في مجلة علامات المغربية التي يرأسها سعيد بنكراد متجاوز الكتاب النقدي الذي زعم أنه تتبع مساراته النقدية،

من جانب نقدي آخر حين يشير الباحث إلى إستراتيجية الوعي النقدي السيميائي الذي تبناه الناقد المغربي نجد قراءته تسلك طريقا تحليليا إلى تتبع الجانب الهيكلي المعبر عن منهجية بناء المتن النقدي بدلا من التركيز على القضايا النقدية السيميائية فرأى أن هذه الإستراتيجية تخضع معرفيا " للإكثار المبالغ فيه من الإحالات وفتح الأقواس ووضع علامات التنصيص" [34].

يتناقض الباحث مع رؤيته المنهجية وطبيعة عنوان بحثه الأكاديمي ويستند إلى قراءة ذاتية أكثر منها منهجية موضوعية، فاستند إلى النقد الانطباعي الذي لم يستطع التخلص منه مما " أوقعه في حالة من التمزق بين النقد المنهجي الموضوعي والنقد الانطباعي الذاتي " [35]، عندما يشير إلى القيمة المعرفية الهامة التي قدمها سعيد بنكراد إلى القارئ العربي بفضل نقده الشارح لكتابات بيرس السيميائية والتي تتميز " بالتعقيد الفكري الذي يستدعي استحضار مرجعيات معرفية لفهم مقاصده السيميائية " [36]

إن أغلب ما ميز قراءة الباحث الأكاديمية لرؤية سعيد بنكراد السيميائية هو الانتصار للذوق الذاتي الذي شكل مركز الدائرة النقدية الانطباعية لقراءته الأكاديمية ، عندما يشير صراحة بأن " أعمال هذا الناقد ليست أصيلة حتى يمكن تصنيفها ضمن التفكير السيميائي "[37] مناقضا تصوره التحليلي السابق الذي ركز فيه على القيمة المعرفية الكبيرة التي ميزت تجربة الناقد السيميائية وهو ما يعبر فكريا عن وجود مفارقة معرفية بين وعي الناقد وبين القراءة التي قدمها الباحث لأن وجهة نظر الناقد متعالية نقديا على قراءة الباحث، عندما أشار سابقا إلى أن هذا الناقد " أكثر تمثيلا للنقد السيميائي في المشهد النقدي المغاربي تأليفا وتنظيرا "[38] .

تقوم قراءة الباحث هامل بين عيسى على انعدام الوعي المعرفي الموضوعي فجاءت عفوية ذاتية لا مبررة وليس أدل على ذلك هو وقوع رؤية الباحث التحليلية في أسر النقد الانطباعي حينما رأى أن الطواف عبر صفحات هذا الكتاب يشير إلى أنه يتضمن خطابا نقديا مشوها أريد له أن يقدم كخطاب متماسك لكنه في الحقيقة ليس سوى محاولة من الناقد سعيد بنكراد تلبية حاجة النقد العربي المعاصر للمسلك النقدي السيميائي، فجاءت قراءته " نتفا ومنتخبات لا تسمن ولا تغني من جوع بسبب غياب الخلفية الفلسفية

المؤطرة للمفاهيم والمقولات السيميائية" [39]، وهي الأحكام النقدية التي يصدرها الباحث كانطباعات شخصية لم يحلل فيها النص النقدي ولم يعلل حكمه الذاتي ولم يدعم كلامه بحجج منطقية موضوعية تقنعنا بما ذهب إليه.

في مسار تحليل آخر نجد أن الباحث يقدم أفق قراءته الشخصي الذي يعبر عن وعيه النقدي ويحاول أن يفرضه على أفق الناقد والقارئ المفترض عندما يصنف جهوده النقدية كجهود تعليمية تهدف للتعريف بالمدرسة السيميائية الأمريكية في الساحة النقدية العربية عموما والمغاربية خصوصا، فيركز على الطابع الموسوعي لرؤية الناقد سعيد بنكراد أكثر من النظر إليه كمتخصص في الخطاب النقدي السيميائي الأمر الذي ساهم في شيوع التأثير المنهجي الانطباعي في قراءة الباحث وجعل قراءته قيمية لا موضوعية تخضع لعامل الاكتشاف والانطباع المنفعل أكثر من الطابع الموضوعي المعلل بالقرائن والدلائل النصية فلا يقدم نصا نقديا موضوعيا وإنما نصا انطباعيا ذاتيا، متناقضا مع خصوصية قراءة نقد النقد المنهجية التي تبناها لمعاينة تجربة سعيد بنكراد النقدية عندما وصف " خطابه النقدي السيميائي بالسطحي والعام" [40]، وهو أمر لا نوافق الباحث فيه، بل هو نفسه يتناقض مع اختياراته التحليلية السابقة التي وصف فيها قراءة سعيد بنكراد بالقراءة ذات الطابع التعليمي السطحي، عندما يشير إلى قيام الناقد بمناقشة آراء بيرس السيميائية التي تتطلب درجة من المعرفة المتخصصة في غاية التعمق والدقة والتمكن في السيميائية وفلسفة اللغة بحكم أن مجموع " كتابات بيرس النقدية تتميز بالعقيد والصعوبة والانغلاق" [41]، لكن الملاحظ في مسار قراءة الباحث أنه لا يقدم عينات نصية تكشف وجهة نظره التحليلية لخصوصية التفكير السيميائي للناقد المدروس بقدر ما قدمها كتصورات نظرية تحتاج إلى دليل نصي يثبتها ويبررها .

ينطلق الباحث من موقف انتقادي لإستراتيجية رؤية بنكراد السيميائية مبرزا جوانب القصور النقدي في المتن النصي المدروس، لكن الباحث لم يستطع النأي عن متاهات القراءة الانطباعية التي أفراط فيها من طابع الاستهجان الذاتي متناقضا مع طبيعة قراءته الأكاديمية وخصوصيتها التحليلية، عندما يشير بأن كتابات بنكراد تعد "نتفا ومنتخبات لا تسمن ولا تغني من جوع "[42]، فجعل بذلك من حالته المزاجية معيارا نقديا رسم قراءة

المنارة للاستشارات

تستقيم على ظواهر الأمور ولا تقرأ عمقها وجوهرها لأنها ترتهن إلى الحكم المسبق أكثر من الوعي الذي يسائل جوهر النص النقدي وسماته. فضعف رؤية سعيد بنكراد وفق تصوره الانطباعي يعود لغياب " الرؤية الابستيمولوجية المؤطرة للمفاهيم النقدية التي قدمها بسبب اختلاف الخلفية الثقافية والاجتماعية الغربية مع العربية " [43]، وهو الاختيار التحليلي الذي يتناقض مع تبنيه لهذا الناقد كأنموذج نقدي يعبر معرفيا عن تجليات الخطاب النقدي السيميائي المغاربي.

لقد أدي استحضار الباحث وتذكيره بالاختلاف الفكري بين البيئتين الثقافيتين الغربية والعربية في كشف حاجة النقد السيميائي المغاربي المعاصر إلى خطاب فلسفي أصيل على مستوى الرؤية والطرح، فلا يمكن فكريا فهم " المعارف الإنسانية دون مناقشة الأسس الفلسفية التي انبنت عليها "[44] ،إذ أسهمت التأثيرات المعرفية للمرجعية السيميائية الغربية في غياب طرح يعبر عن خصوصية الوعي النقدي العربي في تشكيل خطاب " نقدي سيميائي مغاربي مضطرب ومشوش فكريا ومتشعب مفاهيميا ومصطلحيا" [45] خاصة مع استحضار المعطيات النقدية والفكرية والفلسفية للمدرستين الأوربية والأمريكية، ما جعل الباحث يشير إلى الرؤية الخلافية التي ميزت الساحة النقدية العربية عموما والمغاربية بشكل خاص حول المسائل السيميائية النظرية التي " عجز الناقد الغربي نفسه عن الفصل المعرفي في قضاياها " [46]، وهو ما أدى معرفيا إلى غياب الأنموذج النقدي السيميائي المغاربي الأمر الذي ساهم في وجود ملامح الاضطراب المنهجي وغياب خطاب نقدي أصيل فكريا قائم على بنية اصطلاحية ومفهومية دقيقة وخلفيات نظرية وفلسفية محددة.

في ختام معاينة الباحث لإشكالية العلامة السيميائية في النقد المغاربي سلكت قراءته طريقا تحليلا لتقديم تصور فكري يمكن من رسم خصوصية الخطاب السيميائي العربي عموما والمغاربي بشكل خاص، فقدم أفق قراءته الخاص بناء على خلفيته المرجعية والمعرفية، فرأى أن فاعلية التفكير النقدي يجب أن تقوم على نوعية التعليم الجامعي المغاربي الذي يجب أن يؤسس لممارسات نقدية تقوم على " غرس فكرة الاعتماد على

المنارة للاستشارات

النفس معرفيا من خلال التفلسف والإبداع المعرفي الخلاق الذي يستفيد من الثقافة الأجنبية لكنه لا يجب أن يبقى تابعا لها وإنما يتحدد بخصوصيته التي تميزه عن غيره"[47]،

بالرغم من طبيعة القراءة التي قدمها الباحث والتي تبني فيها تحليلات نقدية تستند أكثر إلى الطابع الانطباعي الذوقي التي أفقدته حرية اختيار أدواته التحليلية الموضوعية، فإنه لا يمكن الاستهانة بالقيمة العلمية لهذه القراءة لأنها لم تقتصر على المعطى التذوقي فحسب وإنما قامت كذلك بتبني الهاجس العلمي المعرفي، عندما يشير الباحث بقراءة وصفية سريعة إلى إمكانية تأثير عدد من الشخصيات الفلسفية المغاربية على تأسيس خصوصية الخطاب السيميائي المغاربي كمالك بن نبي ومحمد أركون ومحمد عابد الجابري وطه عبد الرحمان كشخصيات فلسفية ساهمت في إشاعة ملامح وإرهاصات روح التفكير السيميائي في الساحة النقدية المغاربية، لكنه يقر بغياب رؤية فلسفية محددة لتأطير التصور السيميائي المغاربي خاصة في تأسيس مقومات العلامات السيميائية ودلالاتها، إضافة إلى اختزال المنهج السيميائي في خطوات إجرائية مفصولة عن خلفيات فلسفية وابستيمولوجية، وهو ما أدى إلى توظيفها بشكل مشوه أفقدها الكثير من طاقاتها الإجرائية التي تعد مظهرا سطحيا للمنهج النقدي فقط لأن جوهره الأساس فهو الخلفية الفلسفية التي بغيابها يفقد المنهج قوته التحليلية وقيمته المعرفية .

الهوامش:

(1) ـ عبد العاطي الزياني، نقد النقد وأبعاد التنظير النقدي ،مقال بمجلة علامات في النقد، النادي الثقافي الأدبي، السعودية، ج56 ع 14، 2005

(2) ـ حميد لحمداني، سحر الموضوع (عن النقد الموضوعاتي في الشعر والرواية)، دار سال، ط1، المغرب، 1990.ص 7

(3) ـ نفسه، ص7

(4) ـ عناية غازي، إعداد البحث العلمي، دار الجيل ، لبنان ، 1992 ص23

(5) ـ حفيظ ملواني، إشكالية القراءة بين التنظير والممارسة(تطبيق على فاجعة الليلة السابعة بعد الألف)، الجزائر، أطروحة دكتوراه بجامعة الجزائر ،2005-2006 ، ص544

(6) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، أطروحة دكتوراه بكلية الآداب واللغات والفنون جامعة وهران ، 2012-2013.

المنارة للاستشارات

(7) ـ أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة(المنطق السيميائي وجبر العلامات)، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم، الجزائر، لبنان، ط1، 2005 ، ص9

(8) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص343.

(9) ـ نفسه، ص344

(10) ـ أحمد يوسف، الدلالات المفتوحة (مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة)، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب،2005.

(11) ـ أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، (م، س) ص19 .

(12) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص344

(13) ـ فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، لبنان، ط1، 2010، ص53.

(14) ـ أحمد يوسف، القراءة النسقية (سلطة البنية ووهم المحايثة) منشورات الاختلاف الجزائر، ط1 ، 2003.

(15) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص347

(16) ـ عبد الحميد هيمة، الخطاب النقدي بين النقل والتأصيل من خلال كتاب " حداثة النص الشعري في المملكة العربية السعودية للدكتور عبد الله الفيفي" مقال بملتقى النقد الأدبي بالسعودية، النادي الأدبي بالرياض،2011 ، ص198.

(17) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص347

(18) ـ نفسه، ص347

(19) ـ أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر أحمد الصمعي، منشورات المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2005 ص45

(20) ـ أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، ص 118

(21) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص348

(22) ـ سعيد بنكراد، السيميائيات السردية،(مدخل نظري)، منشورات الزمن، المغرب، 2001، ص 5 ـ 6

(23) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص348

(24) ـ نفسه، ص349

(25) ـ نفسه، ص349

(26) ـ نفسه، ص351

(27) ـ أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة (م، س)، ص 9

(28) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص352

(29) ـ نفسه، ص352

(30) ـ نفسه، ص354

المنارة للاستشارات

(31) سعيد بنكراد، السيميوزيس والقراءة والتأويل، مقال بمجلة علامات ، المغرب، ع10، 1998، ص46

(32) ـ سعيد بنكراد، السيميائية والتأويل (مدخل إلى سيميائيات شارلز سندرس بيرس)، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، ط1، 2005.

(33) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص 357.

(34) ـ نفسه، ص 358

(35) ـ عبد الحميد هيمة، الخطاب النقدي بين النقل والتأصيل من خلال كتاب " حداثة النص الشعري في المملكة العربية السعودية للدكتور عبد الله الفيفي" (م ، س) ص 201

(36) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص 358

(37) ـ نفسه، ص 358

(38) ـ نفسه، ص342

(39) ـ نفسه، ص359

(40) ـ نفسه، ص359

(41) ـ جيرار دولو دال، السيميائيات أو نظرية العلامات، تر، عبد الرحمان بوعلي،دار الحوار، سوريا،2004 ، ص8

(42) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص359

(43) ـ نفسه، ص359

(44) ـ سعيد بنكراد، السيميائيات السردية (مدخل نظري) (م ، س)، ص5.

(45) ـ بن عيسى هامل، إشكالية الخطاب السيميائي في النقد الأدبي المغاربي(دراسة في نقد النقد)، ص363

(46) ـ نفسه، ص364

(47) ـ نفسه، ص365

*** *** * **

المنارة للاستشارات